طارق شاب عراقي يحيا في مجتمع ما زال يقتل الفتاة إن عشقت، كيف نتصوّر قبوله، دون اعتراض، أن تغدو أخته واحدة من عدة عشيقات لرجل من خارج مجتمعه؟

وكيف يمكن أن نقتنع، أن فتاة أرستقراطية، مثل وصال، ليس في حياتها شيء جدي واحد، وتكاد تفقد عقلها من الشبق، تتحوّل فجأة إلى فدائية في لبنان، لتتسرّب من بين يدي السلطات الإسرائيلية حتى تصل إلى وليد في كهفه؟ ولنفرض أن ذلك ممكن، هل يمكن لهذا النمط من النساء، أن تخاطر إحدى ممثلاته بحياتها، لمجرد أن تلتقي بحبيب في الستين من عمره؟.

ويندرج، في باب التكرار وغياب الموضوعية، بطولات وليد مسعود. بطولة دون عقبات، ودون التفات للظروف الواقعية. كيف يمكن أن نتصوّر رجلاً أشرف على الستين من عمره، لم ينل تدريباً عسكرياً، وليس له معرفة بعمليات الداخل، يدخل إلى فلسطين المحتلة، ويذبح اليهود ذبح الخراف! هل بلغ الضعف والعجز بالإجهزة البوليسية الإسرائيلية، أن تسمح لرجل، سبق وأن قبضت عليه، وحققت معه، أن يذرع فلسطين طولاً وعرضاً، ويقتل «بطريقته العنيدة» إلى أن يشفي غليله، ثم يخرج إلى حفلاته وعشيقاته، دون أي اعتراض.

إذا كان المقصود، من هذه البطولات السهلة، تمجيد البطولة الفلسطينية، فإن النتيجة كانت عكسية. وذلك، لأن هذه البطولات تقع في دائرة العجز والتردد. إذ أنه قبل القيام بعملية في الداخل، مهما كانت صغيرة، عليه أن يقوم بدراسة لطوبوغرافية المنطقة، وتحرّكات العدو؛ بالإضافة إلى التدريب الشاق، وغير ذلك من عشرات التفاصيل. والنتيجة لا تكون دائماً قتل العشرات من جنود العدو. إنها أحياناً لا تزيد عن جرح شخصين أو ثلاثة.

عدا عن أنه من الصعب علينا أن نتصوّر أن منظمة فدائية، تسمح لقائد من قادتها، أشرف على الستين من عمره، أن يستقر في داخل الأرض المحتلة، ليقتل أعداداً غفيرة من جنود العدو، انتقاماً لمقتل إبنه. وأما إمكانية إرسال عشيقاته إليه في الداخل، فهي غير واردة قطعاً.

كما أننا نعجب إلى درجة الذهول، من أحد قادة المنظمات الفدائية، وهو الذي يقود عمليات مسلّحة في أقسى الظروف، أن يقتصر عالمه الداخلي على وصف طفولته، أو على الحفلات التي أشترك فيها، أو العشيقات بكل تفاصيلهن الجسدية. ألا تخطر منظمته والظروف السياسية والخطط العسكرية، ولو للحظة واحدة، في ذهنه؟ تصوروا نوعية الأفكار، التي تخطر في ذ ن وليد مسعود بعد عملية فدائية:

«آه فلأمت، أن كان لك بموتي أن تحيي يا مدينتي. يا اوغسطين قرطاجه، ما الذي كنت ستقوله لو علمت؟ شعبي الأعزل يقتلونه، ويقتلعونه، وينسفونه، ويبعثرون أشلاءه عبر وديان الأرض وجبالها...».

إن ما لم يخطر ببال وليد مسعود أن الثورة عمل كامل، وليست مجرد هامش ضئيل من حياة ثري، مستمتع بحياته. كما أن الكتابة عن تجربة كالثورة، والكفاح المسلّح تحتاج إلى معايشة، من الواضح أن وليد مسعود يفتقد أوّلياتها العملية، أو خلفياتها السياسية.

هل نتصور همنغواي يكتب «لمن تقرع الاجراس» أو مالرو يكتب «ايام الامل» لو لم يشاركا مشاركة فعلية في الحرب الاهلية الاسبانية؟